



اسطنبول ملتقى المستشرقين :
الشرق في عيون ثلاثة مستشرقين

أ.د. زكريا قورشون

جامعة مرمره

تركيا

قال المفكر التركي المشهور جميل مريچ " إن المستشرقين هم عيون استطلاع المستعمرين". ثم أظهر ندمه بعد ذلك في مقال له قائلا " أجد أن هذا الحكم غير منصف إلي حد بعيد " ، وقال في بقية مقاله " فلقد تعلمت الأجيال التاريخ العثماني من الألماني هاممر **Hammer** ، وما زال ريد هوس **Red House** صاحب أكبر قاموس في اللغة التركية (١).

وسأضع هذا التقييم في جانب والأحكام النقدية لادوارد سعيد بخصوص المستشرقين جميعا في جانب آخر وسأتحدث عن ثلاثة من المستشرقين المهمين الذين لقت أعمالهم اهتماما بالغا ، وتمت مناقشتها حال حياتهم وبعد مماتهم ، وكتبت عن حياتهم وأعمالهم المتعلقة بالشرق مئات المقالات والأبحاث، ومن الواضح الجلي أن قول شيء جديد عن المستشرقين الثلاثة الذين تم الجدل بشأنهم أمر صعب للغاية بل يكاد يكون مستحيلا ، ولكننا سنحاول الوقوف

¹ Cemil Meriç, "Dilimizin En Büyük Lügat-Nüvisi Redhaouse", *Türk Edebiyatı*, Subat 1982, sayı 100.

علي النقاط المشتركة بين ثلاثتهم وسنفرد مكانا لتقييمهم ، ولا جرم أن أهم الأمور المشتركة بين الثلاثة أنهم عاشوا في استانبول أجمل مدن الشرق ، ولو زعم زاعم أنهم عشقوا هذه المدينة فلن يكون مبالغا .

لقد كانت استانبول بموقعها الجغرافي مصدر جذب واهتمام على مر العصور، ولهذا تعرضت لهجمات مستمرة من الخارج ، ومع هذا لم تكن استانبول إلا عاصمة لإمبراطوريتين اثنتين هما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية العثمانية ، وهذا ما جعلها مدينة مستقرة لقرون عديدة ، ففي العصر البيزنطي كانت محط أنظار واهتمام الغرب لأنها كانت المنافس الوحيد لروما ، كما نالت اهتمام الغرب أيضا بعدما فتحها العثمانيون وصارت حاضرة شرقية وعاصمة إسلامية متطورة .

اختلفت الآراء حول تاريخ بداية الاستشراق ، ورغم الإجماع على أنه قد بدأ في القرن التاسع عشر إلا أننا على قناعة أن تاريخ الاستشراق من الممكن أن يبدأ من الوقت الذي بدأت تمثل فيه استانبول العثمانيين والحضارة الشرقية بعدما كانت امتدادا للحضارة الغربية ، ولا نبالغ إذا اعتبرنا أن تاريخ فتح العثمانيين لاستانبول هو تاريخ بداية الاستشراق .

وبتلك النظرة يمكننا القول أن المستشرقين الأوائل هم العلماء الذين هاجروا من استانبول البيزنطية إلى أوروبا (^٢) ، فبعدها هاجر البيزنطيون إلى أوروبا كانوا يتحدثون عن مدنهم، وأضحت استانبول بالنسبة للأوروبيين مدينة سقطت في يد الحضارة الشرقية ، حتى إن بعضهم

^٢ من العلماء البيزنطيين الذي ساهموا في النهضة الأوروبية :

Demetrius Chalcondyles (1424-1511), John Argyropoulos (1415-1487), Cardinal Bessarion (1395-1472).

كان يري أن وقوع المدينة في يد الحكم العثماني نهاية التاريخ ، وبالطبع فإن هذا التحول زاد الاهتمام بالمدينة كما زاد الاهتمام بالحضارة الشرقية الإسلامية في نفس الوقت ، ولكن علينا القبول بأن وقوع مدينة لا تقل أهمية عن روما بالنسبة العالم المسيحي في يد المسلمين كان سببا في بدء الاستشراق ببعض الأحكام المسبقة عن الشرق.

ولهذا السبب فهناك اختلافات مهمة بين المستشرقين الذين ألفوا كتبنا عن الحياة في الشرق دون أن يعيشوا فيه وبين من شاهدوا الشرق وعرفوا ثقافته .

زار استانبول التي كانت محط الاهتمام طوال التاريخ الكثير من الرحالة والباحثين ، وجعلوها موضوعا لرحلاتهم ومؤلفاتهم ، ولكننا سنتحدث هنا عن المستشرقين الذي عاشوا في استانبول سنين طويلة واعتبروها مثل أوطانهم .

أولهم : وهو جوزيف فون هاممر (١٧٧٤ - ١٨٥٦) ويمثل الاستشراق الألماني النمساوي (٣) ، والثاني : المستشرق الإنجليزي سير جيمس ويليام ريد هوس (١٨٥٠ - ١٨٩٢ م) (٤) . أما الثالث: فيمثل الاستشراق الفرنسي هو بيير لوتي واسمه الأصلي جوليان فيواد (١٨٥٠ - ١٩٢٣) (٥) .

^٣ لقد تم عمل الكثير من الأبحاث عن هاممر ، ولقد قيمه المستشرق المشهور (Annemarie Schimmel) بصورة ممتازة أنظر

Annemarie Schimmel, "Ein Unbekanntes Werk Josph Von Hammer-Purgstalls" *Die Welt Islams* XV, 1-4, Leiden 1974, s. 129-145
ولقد تمت ترجمة هذه الدارسة إلى العربية. انظر : صلاح الدين المنجد ونشرها في كتاب المستشرقين الألمان ، بيروت ١٩٧٨ ، الجزء الأول ، ص ٢٧ - ٣٨ . ولقد استفدنا من هذه الترجمة

^٤ لقد نشرت عن ريد هوس الكثير من المقالات بالتركية واللغات الأخرى ، كما نشرت عنه أو مقالة في الأدب التركي الحديث في مجلة محيط (عدد أغسطس ١٩٣٢ م ص٤٦) ، ولقد كررت هذه المعلومات باستمرار بعد ذلك ولكن أكثر ترجمة تفصيليه لحياته كتبها فندي.

لقد عاش المستشرقون الثلاثة المختلفون في اللغة والجنس في فترات متقاربة إلى حد ما، وليست لدينا معلومات كافية عن مقدار إطلاعهم على أعمال بعضهم البعض، ومقدار تأثيرهم أو تأثيرهم في بعضهم، فعندما توفي الأول كان الثالث قد بدأه مراحل التعليم، ورغم أنهم كتبوا بلغات مختلفة إلا أن مجال اهتمامهم كان واحدا وهو ما قرب بينهم، وثلاثتهم مثلهم مثل كل المستشرقين يهتمون بكل شيء يتعلق بالشرق وعلومه، فتخصصوا في التاريخ العثماني والأدب العثماني وأحيانا في الأدب الفارسي.

عشق المستشرقون الثلاثة استانبول، فقد عمل فيها كل من هاممر وبيير لوتي باسم دولتيهما، أما ريدهوس فقد كان موظفا في خدمة الدولة العثمانية في استانبول، وقد غادر ثلاثتهم استانبول رغما عنهم وشعروا بالرغبة في العودة لها حتي آخر يوم في حياتهم.

ويتميز هاممر عن الآخرين أنه تعلم الشرقيات في النمسا في سن صغيرة، ولكن ثلاثتهم قد عرفوا العالم الشرقي في استانبول، وكأنهم أكملوا تعليمهم عن الشرقيات في هذا المكان، وقد أحسن العثمانيون استقبالهم فاستفادوا قدر المستطاع من علماء استانبول ومفكراتها ومكتباتها ومجموعات الكتب الغنية بها، وتيسرت لهم فرصة مراقبة ومشاهدة مجتمع استانبول بكل سهولة وحرية، وهذا لأنه كان مجتمعا مفتوحا بكل كرم وتسامح لكل المنسويين لكل دين.

Carter V. Findley, "Sir James W. Redhouse (1811-1892): The Making of A Perfect Orientalist?", *Journal of the American Oriental Society*, 99.4, New Haven 1979, s. 573-600.

كُتبت الكثير من المقالات بالتركية عن بيير لوتي ولكن هناك تقييم جميل كتب بالتركية. انظر: Faruk Ersöz, "Güdümlü Bir Yazar Olarak Pierre Loti", *Toplumsal Tarih*, Ocak 2000, s. 8-16.

ولقد ساهمت مشاهداتهم هذه بصورة كبيرة في نضوج أفكارهم ، ويمكن القول إن مدارس الشرقيات الثلاثة الخاصة بهم قد تكونت في استانبول .

استخدم كل من المستشرقين الثلاثة اسم إسلامي وأسسوا صلات وثيقة وروابط متينة مع المجتمع الشرقي، فقد استخدم هاممر اسم " يوسف " وهو معنى اسمه بالشكل المستخدم بين المسلمين . وجعل أشهر النقاشين في استانبول مثل رحمي وعزمي يحفر له أختام بهذا الاسم (٦) بل وحفر هذا الاسم علي شاهد قبره أيضا. ومن الشائع أن ريد هوس عندما جاء إلى استانبول استخدم اسم " مصطفى " وهو من الأسماء المحبوبة عند المسلمين ، حتي إنه كان يقال عنه إنه مسلم وهذا بسبب هذا الاسم ، أما بيير لوتي فوجد أن اسم عارف أفندي لائقا به ، وهذا الاسم من ناحية المعنى من الأسماء الموقرة بين المجتمعات الإسلامية ، ولم يطلق بيير لوتي هذا الاسم علي نفسه فحسب بل أطلقت أيضا علي بطل روايته التي كتبها عن استانبول وحياته في الشرق (٧).

ولا جرم أن بلوغ قمة الهيام بالشرق من الأمور التي اشتركوا فيها جميعا ، وكما هو معروف فإن الرومانسية الحية عند ثلاثتهم قد سحرت بفروق العالم الشرقي عن الغرب (٨) ، لا سيما أن ثلاثتهم قد زاروا مدن إسلامية أخرى غير استانبول ، وتأثروا بمن هناك أيضا ، فقد ذهب

⁶ A. Süheyl Ünver, "Hammer'in Kitapları ve Mühürleri", Hayat Tarih Mecmuası, Yıl 5, Sayı 9, 1 Ekim 1969, s. 19-20; Fethi Tevetoğlu, "Yûsuf b. Hammer", Hayat Tarih Mecmuası, yıl 11, sayı 12, 1 Aralık 1975, s. 12-14.

^٧ إن بطل رواية ايزاده لبيير لوتي هو الكاتب نفسه :

Cemal Demircioğlu, "Aziyade ve Hamam'da Doğu'nun Kurgulanışı", Toplumsal Tarih, Ocak 2000, s. 34-47.

للدراست التي تمت عن هذه الرواية انظر :

Galıp Baldıran, "Pierre Loti'nin Aziyade'sinde Osmanlı Başkentine Tarihsel Bir Bakış", Hacettepe Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Dergisi, cilt 17, sayı 1, s. 17-25.

⁸ Cemal Demircioğlu, a.g.mak.

هاممر وريدهوس إلى مصر ، أما لوتي فقد ذهب إلى المغرب وإلى القدس في شيخوخته ، ولقد انعكست مشاهداتهم في أعمالهم كما استخدموها في تحليل مصادرهم ، كما ان الاثنين الآخرين منهم قد شاهدا ما يكفي عن الشرق أثناء زيارتهما لمدن إيران التاريخية ، وما يمكن قبوله إن ميلهم الثلاثة إلى الشرق كان ثقافيا أكثر منه سياسيا، ومن المؤكد أنهم كانت لهم مساعي شخصية أكثر مما كلفوا به ، وكما ذكر أكثر من مرة عن المستشرقين الآخرين أنهم قد سئموا من المجتمع الغربي فابتعدوا عنه، وكانوا يبحثون عن العالم الخيالي الذي شعروا بالشوق إليه ، لا سيما أن هاممر لم يكن يريد مغادرة استانبول مطلقا ، وعندما ذهب إلى فيينا ذهب إليها على أن يعود مرة أخرى إلى استانبول ، ولما خاب ظنه أقدم حتى على النزاع مع الأمير مترنهي رئيسا لوزراء النمسا ، قام هاممر الذي انتهى حلم وخيال الشرق بالنسبة له بعد ذلك برحلات محدودة في أوروبا ، وعاش بقية حياته كأنه يعيش في الشرق بين الكتب التي جمعها من الشرق ، وربما بسبب شوقه إلى الشرق أوصي بأن يتم عمل قبره علي شكل قبور المسلمين التي زارها ، وكتب على شاهد قبره باليونانية والإيطالية واللاتينية بخلاف هذا فقد كتب علي هذا الشاهد بالتركية والعربية والفارسية كما كتب عليه آيات من القرآن (٩) الأمر المدهش هو وجود عبارة " هو الباقي " على شاهد قبره مثل ما هو موجود على شواهد قبور المسلمين العثمانيين، ويحتمل أن يكون هذا الأمر لرغبته في إظهار مدي اختلاطه وتعلقه بالشرق .

⁹ Fethi Tevetoğlu, "Yûsuf b. Hammer", *Hayat Tarih Mecmuası*, yıl 11, sayı 12, 1 Aralık 1975, s. 12-14.

عندما اختار ريدهوس العيش في استانبول بإرادته كان هاربا من دولته ، حتى إنه عندما تقاعد وعاد إلى لندن قضي حياته بين الكتب التركية أو مع أصدقائه في السفارة التركية أو مع طلابه الأتراك (١٠) .

أما بيير لوتي فقد جاء إلى استانبول عدة مرات وعاش بكل خيالاته وأحلامه في هذا المكان ، وفضل الإقامة في منطقة أبي أيوب الانصاري التي تعد أحسن ممثل للشرق في استانبول بدلا من الحي الذي يفضله الأوروبيون للإقامة في استانبول ، كما فرش منزله في فرنسا طبقا للأصول الشرقية .

كل من الثلاثة كان له اهتمام بالبحرية ، وكان هاممر يتم إعداده كمتترجم للعمل في الوظائف الخارجية إلا أنه قضي جزء من حياته في البحر ، عندما تم تعيينه في مصر من أجل متابعة الاتفاق الخاص بإنهاء الاحتلال الفرنسي على مصر انضم إلى الأسطول الانكليزي، وذهب إلى مصر (١١) بخلاف هذا فإن مؤلفه الذي خطه في استانبول عن المضائق يعد دليلا هاما للبحارة (١٢) أما ريدهوس وبيير لوتي فقد استهلا حياتهم بالعمل كبحارة وأدي كل منهما خدمات جليلة في هذا المجال .

تعلم ثلاثتهم اللغة التركية ، ولقد تعلم هاممر التركية في الأكاديمية النمساوية قبل ذهابه إلى استانبول ، أما ريدهوس فقد طور لغته التركية بالتعلم بين المسؤولين العاملين في استانبول

^{١٠} استمرت علاقات ريدهوس بالدولة العثمانية أثناء وجوده في إنجلترا ، حتى إنه قد أعطيت له مهمة التفتيش ا على الطلاب الأتراك القادمين إلى لندن

M. Kaya Bilgegil, "Türkiye'nin Londra'daki İlk Talebe Müfettişi Redhouse'dur.", *Kubbealtı Akademi Mecmuası*, Yıl 4/4, İstanbul 1975, s. 22-26.

^{١١} İlber Ortaylı, "Hammer-Purgstall", *TDV İslam Ansiklopedisi*, İstanbul 1997, XV, 491.

^{١٢} *Constantinopolis und der Bosphorus*, Pesth 1822.

في تلك الفترة ، حتى إنه كان يعلم لغة الكتابة الرسمية على الأقل مثل أي موظف عثماني ، ويدل على هذا التقارير التي خطها أثناء الاتفاقية العثمانية - الإيرانية سنة ١٨٤٣ م ، أما بيير لوتي فقد تعلم التركية في استانبول على يد سوري يدعي زكي مغامز ، ولكنه في النهاية استسهل و تعلم التركية بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية التي يستخدمها العثمانيين (١٣)

ولقد أهدي أول اثنان منهما مؤلفا واحدا على الأقل إلى أحد سلاطين آل عثمان ، فقد أهدي هاممر كتابه إلى السلطان محمود الثاني ، أما ريد هوس فقد قدم كتابه إلى السلطان عبد المجيد سنة ١٨٤٢ م ، ولقد نال ثلاثتهم تقدير حكام العصر واخذوا منهم الأوسمة ، فبينما نال أول اثنان منهما تقدير سلاطين آل عثمان ، نال بيير لوتي تقدير أول رئيس للجمهورية التركية وذلك بإهدائه سجاده شرقية وخطاب كتبه مصطفى كمال اتاتورك سنة ١٩٢١ باسم مجلس الأمة التركية الكبير (١٤) . والأكثر من ذلك أنه قد أسست جمعية باسم " محيي بيير لوتي " بزعامة الشخصيات المشهورة في تركيا .

العجيب أن المستشرقين الثلاثة كانوا موجودين في استانبول في عصور أزمات الدولة العثمانية وفترات التحول السياسي فيها ، فقد كان هاممر في استانبول في العصر الذي ظهرت فيه المشكلات عقب احتلال نابليون لمصر التي كانت الولاية العثمانية في ذاك الوقت ، وريد هوس فكان في العصر الذي حدث فيه اضطراب في العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية ، أما بيير لوتي فكان في استانبول في فترات متعددة وخاصة أثناء طرد الدولة العثمانية من أوروبا أثناء

¹³ Orhan Koloğlu, "Türkçe Öğretmeni Zeki Maghamez'in Kaleminden Pierre Loti", *Toplumsal Tarih*, Ocak 2000, s. 27-29.

¹⁴ من أجل نص الخطاب انظر :

Faruk Ersöz, *a.g.mak.*

حروب البلقان والحرب العالمية الأولى ، وعند النظر إلى تلك الخصائص يبقى في بالنا باستمرار سؤال وهو :

هل كانوا موجودين في استانبول لأداء مهمة ما؟ ولا يمكننا الجواب على هذا السؤال بالنظر إلى تراجعهم المعروفة ، ولكن طبقا لما تمكنا من ملاحظته أن ثلاثتهم كانوا يعملون للطرفين، فمن جانب كان الشرق الذي شعروا بارتباطهم به والمتمثل في الدولة العثمانية ومن جانب آخر دولهم التي عاشوا فيها ، ولهذا فمن المؤكد أنهم خصصوا قسما كبيرا من مساعيهم لتطوير العلاقات بين دولهم وبين الدولة العثمانية .



هاممر والعالم الشرقي :

بدأت دراسات الشرقيات في النمسا في أواسط القرن السادس عشر بوضع دروس اللغة العربية واللغة التركية في برنامج جامعة فيينا ، ولا جرم أن اهتمام النمساويين كان سياسيا ، ولكن هذه البداية أدت بمرور الوقت إلى إعداد الكثير من المستشرقين الجدد ، وخاصة عندما أسست ماريا تريزا (المتوفاة سنة ١٧٨٠ م) أكاديمية الشرقيات ، وبجهودها زاد الاهتمام ببحوث الإسلام والعالم الإسلامي ، وكان هاممر من الطلاب الذين تعلموا في هذه الأكاديمية .

هل كان هاممر أفضل مستشرفي عصره ؟

لقد سُئل هذا السؤال في حياته عدة مرات ، وأنتقدت مؤلفاته بشدة ، حتى إنه قد اشيعت فكرة أن هاممر مترجم يستخدم الألمانية بصورة جيدة أكثر منه مستشرق ، ولكن هذه الانتقادات لا تمنعنا من أن نعتبره مؤسس الاستشراق الأكاديمي الألماني النمساوي (١٥) خاصة أنه قد أدي خدمتين كبيرتين في هذا المجال ،

الأولي : هو كتابته تاريخ الدولة العثمانية المكون من عشرة مجلدات ، وتناول فيه الأحداث التاريخية من تأسيس الدولة العثمانية حتى اتفاقية كوجوك قابنارجة سنة ١٧٧٤م (وهي سنة ميلاده) ، ولقد نجح هاممر الذي استخدم الوثائق والمصادر الغربية ثم المصادر التركية والعربية الفارسية بصورة واسعة في عمل شيء لم يجرؤ عليه أي أوروبي آخر حتى اليوم ، أما الخدمة الثانية : هو تعريف الغرب العديد من المصادر الشرقية أثناء إعداد مؤلفه، وعلى رأسها

^{١٥} بعدما لفتت سوزانا ل. مرشند إلي كونه في الأساس مترجم الدولة قالت وهي محقة إن هاممر هو مؤسس الدراسات العربية الحديثة والتاريخ العثماني في الألمانية

Suzanne L. Marchand, German Orientalism in the Age of Empire: Religion, Race and Scholarship, Washington 2009. s. 119.

كتاب المؤلف العثماني حاجي خليفة المشهور باسم كاتب جليبي ، ولم يكتف بهذا بل قام بتعريف الغرب برحلة أوليا جليبي الذي يعد من أهم الرحالين في العالم.

توجد بعض الأخطاء في كتاب التاريخ العثماني الذي كتبه والذي ما زال متداولاً بين أيدي الباحثين (١٦) ولا جرم أنه سيطرت على هذا الكتاب النظرة السياسية النمساوية للدولة العثمانية باعتبارها جار منافس لها ، وهناك الكثير من المؤرخين حتى هذا العصر يرسمون التاريخ طبقاً للدولة التي ينتمون إليها ، وعند مراعاة هذا الأمر الذي لا مفر منه يمكن انتقاد تاريخ هاممر من ناحية الأسلوب والأصول فقط ، ولكننا على قناعة أن نظرتة الاستشراقية يمكن معرفتها ليس بالبحث فيما كتبه بالبحث فيما لم يستطيع أن يكتبه ، ويشرح هاممر في تاريخه الفترات التي تفوقت فيها الدولة العثمانية والتي توجهت فيها إلى أوروبا ، ولكن عدم كتابته التاريخ بعد معاهدة قاينارجه ١٧٧٤ م التي تعد بداية سقوط الدولة العثمانية وعدم كتابته الأجزاء الأخرى وخاصة المتعلقة بعصره ومشاهداته العينية أمر له معناه ، ويجعلنا نسأل : لماذا كتب تاريخه حتى سنة ١٧٧٤ م؟ وقد يقول قائل إن هذا منبعه أنه لم يرغب في إفساد سحر الشرق الذي تشكل في عقله ، ولكن مذكراته التي كتبها في الفترة الأخيرة لا تشير هذا البتة، وفي تلك المذكرات نجح هاممر في الفصل بصورة جزئية بين أعماله الأكاديمية ومشاعره وأحاسيسه ، فالنظرة الحيادية الموجودة في أعماله قد تغيرت في مذكراته ، فلقد كرر في مذكراته الرأي الغالب في السياسة النمساوية القائل بأن الدولة العثمانية ذات أساس لا يمكن إصلاحه وسقوطها أمر ضروري " ،

¹⁶¹⁶ Söz gelimi "Fatih Sultan Mehmed'e kan dökücü, yeniçerilere de yağmacı" bakışı bu eserde ilk gözlemlenen ön yargılarından. Bu yaklaşım ve diğer eserlerinin bir değerlendirmesi için bak:

فأول ما يلاحظ على المؤلف أن له أحكام استباقية مثل نظرتة للسلطان محمد الفاتح على أنه سفاك للدماء والأنكشارية على أنهم لصوص ، من أجل تقييم هذا السلوك في أعماله انظر :

İlber Ortaylı, a.g.mak.

ولكن هذه الكلمات ليست السبب في تسميته مستشرقاً ، بل على العكس فإن نظرتة إلى الشرق قد لخصها في جملة واحدة وردت في مذكراته بأسلوب محير ، فعندما ترك هاممر الأراضي العثمانية التي عرفها بأنها " وطن الفكر " ودخل حدود النمسا قال عن الحدود ما يلي " وعبرت الإشارات المفارقة بين البربرية التركية والثقافة الأوربية " (١٧) وإذا وضعنا في الحسبان أن هذه الجملة قد كتبت في فترة متأخرة من حياته يرد على العقل سؤال : هل من الممكن الوصول إلى أن هذا هو رأيه الأساسي عن الشرق برغم كل الخدمات التي قدمها للعلوم الشرقية ؟.

هل كان ريدهوس مستشرقاً أم لغويًا ؟

ذكرنا فيما سبق أن ريد هوس الاسم الثاني في موضوع البحث كانت حياته المليئة بالأسرار موضوع للكثير من الأبحاث في اللغات الأوربية واللغة التركية . ومسألة مقدار تمثيله للاستشراق الإنجليزي أمر قابل للنقاش ، ولكن إذا ما وضعنا إسهاماته التي قدمها في تعليم البحرية العثمانية جانبا فإنه حتى اليوم المستشرق الوحيد الذي أعد أهم قاموس بين التركية والانجليزية ، وما زال يحافظ على هذه الصفة ويتسم بها حتى اليوم ، ولقد تم عمل الكثير من الدراسات بعد ذلك بناء على قاموس ريد هوس ، ولقد تناولنا فيما سبق قسما من علاقته بالشرق ، ولكن إذا ما انتبهنا إلى أن كل أبحاثة الاستشراقية قد كثفت في هذا القاموس، وقد عمل في تجهيزه عمره كله تقريبا، يمكننا أن نفهم درجة أهمية هذا القاموس ، وهنا يجب النظر إلى قاموسه من الناحية اللغوية ، ولكن هذا العمل الذي ألفه باذلا فيه جهد كبيرا ووقتا طويلا هل يلزم أن نعتبر منبعه وسببه عشق الشرق؟ أم أن هناك أسباب أخرى لتحفيزه على هذا العمل، والاستمرار

^{١٧} كان يري أن كلمة " ترك " تمثل الشرق كله .

Bekir Sıtkı Baykal, "Hammer'in Hatıratı", *Dil ve Tarih Coğrafya Fakültesi Dergisi*, 1/1, Ankara 1946, s. 131.

فيه ؟ وجواب هذا السؤال ما زال في حاجة إلى بحث ، ولكن الأمر القطعي أنه تمكن بهذا القاموس أن يصبح جسرا بين الشرق والغرب ، وسواء الآراء التي أوردتها في مقدمة كتابه أم الكلمات الغنية بالمعاني التي نقلها "فندلي" من أحد خطابه تظهر نظرتة إلى الشرق .

" أدعو للعثمانيين من كل قلبي ووجداني ، وأتألم بسبب المظالم الأوربية الواقعة عليهم ، تلك المظالم الواقعة بسبب القيل من الجهل والكثير من الكراهية الدينية ، وقبل أربعين - خمسين سنة عندما كنت شابا أملت أن تبقى كراهية الأوربيين نسبيا منسيا ، وقد حدث هذا ، وحاولت أقناع العثمانيين بهذا ، وأعتقد أنني قد نجحت في تغيير أفكار الكثير ، وبدأت تركيا تطلب صداقة أوربا المسيحية ، ولكن التعصب والرياء لن ينتهي أبدا ، فلقد أجمت أوربا وانجلترا نار الكراهية التي تشعر بها تجاه كل ما هو عثماني ، وهذا هو خلافي الوحيد مع انجلترا وهو طلب التسامح والاحترام " (١٨)

إن ريدهوس الذي خط تلك العبارات والذي خصص لمشروع قاموس أكبر من القاموس الذي نشره والذي كتبه طوال عمره كان يأخذ أجره من الدولة العثمانية ، ورغم هذا أرسل المسودات إلى استانبول، وترك المشروع في منتصفه ، وعقب ذلك قبل بعرض البعثات التبشيرية الأمريكية في استانبول، وترجم لهم بعض التراجم لها، ونُشر قاموسه الموجود بين أيدينا اليوم (١٩) ولا يوجد رد معقول لما دفعه للقيام بهذا ، ولم تعطِ إجابة قاطعة عن السؤال الخاص بعلاقته بالمبشرين الأمريكان، هل كانت تلك العلاقة مادية فقط؟ أم تجاوزت هذا وارتبطت

¹⁸ Carter V. Findley, *a.g.mak.*, s. 587.

^{١٩} لقد وردت معلومات تفصيلية عن جهودة الخاصة بالقاموس في مقالة فندلي السالفة الذكر

بفعاليات التبشير ؟ ، ورغم هذا فإن أعمال ريدهوس قد ساعدت الغرب على فهم الشرق بصورة صحيحة ، ويجب القبول بأن بقائه في استانبول سنين طويلة كان له دور في هذا .

ما الذي كان يبحث عنه بيير لوتي ؟

لم يتلق بيير لوتي تعليما جيدا في دولته ، خاصة أن اختار البحرية كمهنة يتعيش منها ، وربما يكون مجيئه إلى الشرق محض صدفة ، وأول مرة جاء فيها إلى الشرق كانت عندما جاء إلى إزمير كضابط في البحرية في ٢٠ - ٢٥ فبراير ١٨٧٠ م ، ثم جاء مرتين بعد ذلك مرة إلى سلانيك وأخري إلى استانبول ، وفي النهاية أثمرت تلك الرحلات ونشر أولي رواياته المسماة "ازياده" في يناير ١٨٩٧ م ، فالتاريخ الذي نشرت فيه تلك الرواية مهم للغاية ، ففيه خسرت الدولة العثمانية حرب اضطرت لخوضها مع روسيا ، وباتفاقية برلين طرحت على الساحة مسألة الشرق الجديد ، أي خطط تقسيم الشرق بين الدول الأوروبية الكبرى ، ففي تلك الفترة وبتلك الرواية حاول بيير لوتي شرح نظرة الشرق للغرب ، وليس نظرة الغرب للشرق ، وفي الرواية تناول اتهام المسلمين ظلما بالمسؤولية عن الأحداث الواقعة في البلقان ، كما تناول غرور المفوضين الغربيين في مؤتمر استانبول ونفاقهم وريائهم . ويتنقد الروس الذي أحدثوا هذا الاضطراب ، بخلاف هذا فإنه يصف العثمانيين بالساعيين الي الجبهة لحماية أوطانهم متوكلين على الله ، في الحقيقة لقد نجح بيير لوتي بوضع نفسه مكان الآخر بصورة لم يتوقعها أحد من كاتب غربي عندما خط هذا العمل ، ونجح جدا في التعبير عن مشاعر المسلمين والعثمانيين ، ولما لقي هذا الطرز من الروايات راجا في أوروبا بقي بيير لوتي طوال عمره صديقا للشرق ، وظل صديقا للعثمانيين والأتراك ، فكلما وقعت الدولة العثمانية في ضيق وتعرضت لضغط الغرب يرفع صوته ،

وخاصة أنه كان له رد فعل كبير وقوي أثناء الحروب التي أنهت الوجود العثماني في أوروبا ، ويتهم الدول الأوروبية في المقالات التي كتبها في فيجار و جيل بلاس ، وقال مدافعا عن الترك أنهم اتحدوا مع الدولة المعتدية باسم المسيحية ، وينتقد بشدة الكتاب الأوربيين الذين يكتبون " بمفهوم المسيحية الرخيصة " عن تركيا دون أن يعرفوا عنها شيئا (٢٠)

إن المصائب التي واجهها بسبب دفاعه عن الترك كانت موضوع مزاح في فرنسا ، وكتب ضده المقالات ، ورسمت عليه الكاريكاتيرات ، ورغم هذا ظل على موقفه .

هل هذه الصداقة نابعة من داخل شخص ضاق ذرعا بالقيم الغربية فاحتضن الشرق بشدة ، أم أنها كانت نتيجة انزلاقه صدفة إلي مجال الأدب ؟ أم هل كان بيير لوتي يبحث عن القيم الموجودة في الشرق و التي بدأت تغرب في الغرب كالتي نشرها في رواياته مثل " الاخلاص والأمانة واحترام الكبير وإكرام الضيف والرحمة بالكل حتى الحيوانات " (٢١) ؟ هل كان يحب الشرق من أجل هذا ؟ ويمكن الرد بنعم على تلك الأسئلة من بكل سهولة إذا ما نظرنا إلى ما كتبه بيير لوتي مباشرة ، ولكن يلاحظ أن نقاد الأدب في الفترة الأخيرة يعارضون هذا الرأي ، ويرون أن بيير لوتي مثله مثل الآخرين واحد من المستشرقين الذين عرفهم ادوارد سعيد بأن له هدف مستتر ، هل كان يعيد تصوير الشرق ، ويرغب في توجيهه، فحتي الشخصيات التي اختارها لبطولة روايته قد بنيت على إظهار تفوق الغرب، فكان دفاعه عن الشرق لأنه المكان الوحيد الذي يستطيع أن يعيش فيه الشعور بالآخر الذي أراد تصويره في خياله بحرية كاملة (٢٢)

²⁰ Faruk Ersöz, *a.g.mak.*, s. 15.

²¹ Faruk Ersöz, *a.g.mak.* s. 15.

²² Cemal Demircioğlu, *a.g.mak.* s. 34-35.

الحقيقة إن هذا التقييم يتفق مع التعريف الذي قام به إدوارد سعيد ، فإنه يرى أن المستشرق " هو المشاهد الأوربي الذي يقف مشاهدا باستمرار ولا يتدخل في الأحداث مطلقا " ، نعم إن الاستشراق ليس بريئا بالكلية ، و لكن أليس وصفه كله بما ورد في كلمات المفكر جميل مريح التي ذكرتها في مقدمة البحث أمر به قليل من الظلم والحييف ؟

